علم الاجتماع الاستعماريّ
التركيز على رهاب الإسلام المعرفيّ

رامون غروسفوغيل[1]

الملخّص

يبحث هذا المقال في كيفيّة تشكيل العنصريّة المعرفيّة في النقاشات المعاصرة حول رُهاب الإسلام. العنصريّة المعرفيّة وجهٌ مُستهانٌ به من وجوه العنصريّة. الجزء الأوّل هو نقاشٌ عن العنصريّة المعرفيّة في النظام العالمي. الجزء الثاني هو عن سياسات الهُويّة المهيمنة الصّادرة عن الذُكوريّة الغربيّة والردود الأُصوليّة عليها. الجزء الثالث هو عن رُهاب الإسلام المعرفي وعلوم الاجتماع الاستعماريّة.

الكلمات المفتاحية: علم الاجتماع الاستعماريّ، الاستعمار، الإسلام المعرفيّ، رُهاب الإسلام المعرفيّ، النظام العالميّ.

---

١. أستاذٌ مساعدٌ في قسم الدراسات الإثنيّة في جامعة كاليفورنيا، وباحثٌ أقدم في بيت العلوم الإنسانيّة في باريس، نشر الكثير من المقالات والكتب حول الاقتصاد السياسي في النظام العالمي وحول الهجرة الكاريبيّة إلى غرب أوروبا والولايات المتّحدة.

-Epistemic Islamophobia and Colonial Social Sciences ،Ramón Grosfoguel

University of California ،Berkeley • Maison des Sciences de l'Homme ،Paris ،grosfogu@berkeley.edu

- ترجمة: علي صبّاح.

العنصريّة المعرفيّة في النظام العالمي

العنصريّة المعرفيّة والجنسانيّة المعرفيّة وجها العنصريّة والتحيّز الجنسي الأكثر استتارًا في النظام العالميّ (النظام العالمي الغربيّ/ المسيحيّ الحداثيّ/ الاستعماريّ الرأسماليّ/ البطريركيّ)[1]. إنّ العنصريّة والجنسانيّة على الصعيد الاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصاديّ واضحان ومعترفٌ بهما أكثر من العنصريّة الجنسانيّة المعرفيّتين. تمثّل العنصريّة المعرفيّة الأنموذج التأسيسيّ للعنصريّة والنسخة القديمة منها، ومن خلالها يتمّ تحديد دونيّة الشعوب (غير الأوروبيّة) بحسب قربها من الحيوانيّة التي تُعرّف بوصفها انحطاطًا في الذكاء وغيابًا للمنطق الناتج. تعمل العنصريّة المعرفيّة عبر تمييز سياسات الماهويّة (الهويّة) الصّادرة عن النخبة الذكوريّة (الغربيّة)، أي تقليد التفكير المهيمن على الفلسفة الغربيّة وعلى النظريّة الاجتماعيّة الذي لا يشمل المرأة (الغربيّة) في أغلب الأحيان، ولا يشمل الفلاسفة وعلماء الاجتماع (غير الغربيّين) في جميع الأحوال.

وفق هذا التصور، يُحتكر الغرب موقع إنتاج المعرفة، ويُقدَّم بوصفه الجهة الوحيدة المؤهّلة للوصول إلى مفاهيم (الكلية، والعقلانية، والحقيقة)، وتعدّ المعرفة غير الغربيّة من وجهة نظر العنصريّة المعرفيّة الغربيّة أقلّ قيمةً وقدرًا منها، وبسبب التشابك ما بين العنصريّة المعرفيّة والجنسانيّة المعرفيّة يكون علم الاجتماع الغربيّ مظهرًا من مظاهر العنصريّة والجنسانيّة المعرفيّتين؛ إذ إنّه يُميّز المعرفة الذكوريّة الغربيّة بوصفها المعرفة المتفوّقة في العالم حاليًّا.

إذا تفحّصنا نخبة المفكّرين ضمن المجالات الأكاديميّة الغربيّة نجدهم ومن دون أيّ استثناءٍ يميّزون المفكّرين الغربيّين الذكور ونظريّاتهم، وبشكلٍ خاصٍّ الذكور الأوروبيّين واليورو ـ شمال أميركيّين. لقد بلغت سياسات الهويّة الماهويّة المهيمنة من القوّة والتطبيع ـ عبر الخطاب الموضوعيّ والحياديّ لسياسة الأنا المعرفيّة الديكارتيّة في العلوم الاجتماعيّة ـ درجةً أنّها تُخفي من يتكلّم، ومن أيّ موقع قوّةٍ يتحدّث، فعلى سبيل المثال نفترض بداهةً حين الحديث عن سياسات الهويّة أنّنا نتكلّم عن أقلّياتٍ عرقيّة. في الحقيقة، ومن دون نفي وجود سياسات الهويّة الماهويّة بين الأقلّيات العرقيّة، تستعمل سياسات الهويّة المسيطرة الخطاب الهويّاتي العنصريّ الجنسانيّ لنبذ كلّ تدخّلٍ نقديّ متجذّر في المعارف والكونيّات الصادرة عن الجماعات المُستضعفة وعن تقاليد تفكيرٍ غير أوروبيّة[2].

1. Grosfoguel2008a.

2. Madonado-Torres 2008.

ما زالت الخرافة المبطّنة للأكاديميّة المغرَّبة هي الخطاب الموضوعيّ والحياديّ الذي يُخفي مكان إفصاح المتكلّم، أي هويّة المتكلّم والجهاز السياسيّ الإدراكيّ للمعرفة وسياسة المعرفة الجغرافيّة ضمن علاقات القوّة على الصعيد العالمي. عبر خرافة سياسات الأنا المعرفيّة ــ التي تتكلّم في الحقيقة بلسان الذكر الغربيّ وضمن سياسة جغرافيّة أوروبيّة المركزــ يتمّ رفض الأصوات المنتقدة وتجاهلها، الأصوات الصادرة عن الأفراد أو عن الجماعات التي تضعها العنصريّة الماهوية المهيمنة والجنسانيّة المسيطرة في درجةٍ دونيّةٍ ملحقةٍ بحجّة أنّها خاصّة. إذا كان لنظريّة المعرفة لونٌ ـ وهو ما يشير إليه الفيلسوف الأفريقيّ إيمانويل شوقوودي إزه[1] (١٩٩٧) ـ أو جنسٌ/لونٌ ـ كما تحاجج عالمة الاجتماع الإفرو أميركيّة باتريسيا هيلس كولّينس[2] (١٩٩١) ـ يكون لنظريّة المعرفة المهيمنة الأوروبيّة المركز على العلوم الاجتماعيّة أيضًا لونٌ وجنسٌ. تُشكّل نظريّة المعرفة المبنيّة على أساس تفوّق الرجل الأوروبيّ ودونيّة غيره جزءًا أساسيًّا من العنصريّة/ الجنسانيّة المعرفيّة التي استدامت في النظام العالمي لأكثر من خمس مائة عامٍ.

بدأ تقديس امتياز الغرب المعرفيّ وتطبيعه حين دمّرت الملكيّة الإسبانية الكاثوليكيّة الأندلس، وآونة توسّع الاستعمار الأوروبيّ في أواخر القرن الخامس عشر، وأوّل ما قام به هذا التمييز هو إعادة تسمية العالم بأسماءٍ من علم الكونيّات المسيحيّ (أوروبا، أفريقيا، آسيا، وفي ما بعد أميركا)، وتوصيف جميع المعارف غير المسيحيّة على أنّها نتاج قوى وثنيّةٍ شيطانيّة، وصولاً إلى الافتراض المنبثق عن العصبيّة المحليّة الأوروبيّةِ المركز أنّ التقليد الإغريقيّ الرومانيّ مرورًا بتقاليد عصر النهضة والتنوير وتقاليد العلوم الغربيّة تشكّل الطريق الوحيد للوصول إلى الحقيقة والكلّيانيّة.

تمّ تطبيع التمييز المعرفيّ الأوروبيّ المركز لسياسات الهويّة الصّادرة عن الذكوريّة الغربيّة إلى درجة تجعل رؤيتها بوصفها سياسات هويّة مهيمنة أمرًا صعبًا، حتى تمّ حسبانها أنّها المعرفة الكلّيانيّة الطبيعيّة، وعدّت كلّ تقاليد التفكير الأخرى دونيّة، وقد وصفت في القرن السادس عشر بأنّها (بربريّة)، وفي القرن التاسع عشر (بدائيّة)، وفي القرن العشرين (متخلّفة)، وفي بداية القرن الحادي والعشرين (نقيضةٌ للديموقراطيّة). كانت العنصريّة المعرفيّة والجنسانيّة المعرفيّة عنصرين تأسيسيّين لمجالات العلوم الاجتماعيّة الغربيّة التحرّريّة ولإنتاج المعرفة منذ تأسيس هذه العلوم في القرن التاسع عشر.

1. -Emmanuel Chukwudi Eze.

2. Patricia Hills Collins.

تفترض علوم الاجتماع الغربيّة دونيّة الإنتاج المعرفيّ غير الأوروبيّ، وتحيّزه، وانعدام موضعيّته وتفوّق الغرب. ترتكز النظريّة الاجتماعية الغربيّة على تجربة خمسة بلدان (فرنسا، وإنجلترا، وألمانيا، وإيطاليا، والولايات المتّحدة)، وهي تشكّل فقط ما نسبته أقلّ من اثني عشر بالمئة من تعداد سكّان العالم، ولكنّ علم الاجتماع الغربيّ والعصبيّة النظريّة الاجتماعيّة المحليّة الملازمة له والزعم الخاطئ برمّته يدّعي أنّه قادرٌ على تفسير التجربة الاجتماعيّة للثمانية والثمانين في المئة من سكان العالم الباقين..

والحاصل تُعدّ المحورية الأوروبية والعنصريّة/ الجنسانيّة المعرفيّة تجليين للعصبيّة المحليّة التي يُعاد إنتاجها في الحاضر في حقل العلوم الاجتماعيّة.

سياسات الهويّة الذكوريّة المُغرّبة

ردًّا على سياسات الهويّة المهيمنة التي تميّز الجمال والمعرفة والتقاليد والروحانيّات وعلوم الكون المسيحيّة الغربيّة، وتدمغ بالدونيّة والتبعيّة الجمال والمعرفة والتقاليد والروحانيّات وعلوم الكون غير المسيحية وغير الغربيّة، قام الأشخاص الموضوعيّون عبر هذه المناهج المهيمنة في درجةٍ أدنى ومُلحقةٍ بتطوير سياسات هويّةٍ خاصّةٍ بهم ردًّا على عنصريّة السياسات المذكورة آنفًا، وهذه العمليّة ضروريّة كجزءٍ من عمليّة التثمين الذاتي في عالمٍ عنصريٍّ يضعهم في درجةٍ دونيّةٍ، ويجرّدهم من إنسانيّتهم. لكنّ لهذا الإثبات الهويّاتيّ حدوده؛ إذ إنّه قد يُفضي إلى مقترحاتٍ أصوليّةٍ تعكس الشروط الثنائيّة لتقليد التفكير الفلسفيّ الجنسانيّ العنصريّ الذكوريّ الغربيّ المهيمن، الأوروبيّ المركز، فعلى سبيل المثال يكون افتراض أنّ الجماعات العرقيّة/ الإثنيّة غير الأوروبيّة الخاضعة هي المتفوّقة يعكس شروط العنصريّة الغربيّة فقط من دون التخلّص من المشكلة الأساسيّة، وهي أنّ العنصريّة تحطّ من مقام بعض البشر وترفع آخرين وتعدّهم جنسًا متفوّقًا على الصعيدين الثقافيّ والبيولوجيّ[1]. مثلٌ آخر هو ما يقوم به الأصوليّون الإسلاميّون أو الأصوليّة الأفريقيّةُ المركز، أي القبول بالخطابات الغربيّة الأوروبيّة المركز التي تدّعي أنّ التقليد الأوروبيّ هو التقليد الديموقراطيّ الوحيد طبيعةً وأصلًا، وأنّ غير الأوروبيّين مستبدّون طبيعةً وأصلًا، ورافضون للخطاب الديموقراطيّ ولأشكال الديموقراطيّة المؤسّساتيّة في عالمهم غير الغربيّ (الذي يختلف عن الديموقراطيّة الليبراليّة الغربيّة في كلّ الأحوال، ويدعم الاستبداد السياسيّ نتيجةً لذلك)، وهذا ما يقوم به جميع أصوليّي العالم الثالث؛ إذ إنّهم يسلّمون بفرضيّةٍ خاطئةٍ أصوليّةٍ أوروبيّة المركز تزعم

1. Grosfoguel 2003.

أنّ التقليد الديموقراطيّ الوحيد في العالم هو التقليد الغربي؛ ولذلك يفترضون أنّ الديموقراطيّة لا تنطبق على ثقافتهم، وعلى مجتمعاتهم، مدافعين بذلك عن أشكال السلطة السياسيّة الملكيّة أو الاستبداديّة أو الديكتاتوريّة، ممّا يُعيد إنتاج شكلٍ معاكسٍ للماهويّة الأوروبيّة المركز، يجعل الخطابات الأصوليّة ذات المركزية الأوروبية، ومعها تنوّعاتها في العالم الثالث، من الديمقراطية مشروعًا غربيّ الأصل، والأشكال غير الديمقراطية تنتمي إلى ما هو غير غربي.

إنّ التقسيمات الناتجة عن سياسات الهويّة هذه تنتهي إلى إعادة إنتاج معاكسٍ للماهويّة نفسها ولأصوليّة الخطاب المهيمن الأوروبيّ المركز. إذا عرّفنا الأصوليّة أنّها منظورات تفترض أنّ نظريّة المعرفة وعلوم الكون الخاصّة بها متفوّقة وتشكّل المصدر الوحيد للحقيقة، واضعةً بذلك نظريّات المعرفة في مرتبةٍ أدنى غير مساوية، تكون المحوريّة الأوروبيّة ليست مجرّد شكلٍ من الأصوليّة بل الأصوليّة المهيمنة في العالم حاضرًا، وتكون أصوليّات العالم الثالث (الإسلاميّة، أفريقيّة المحور، الشعوب الأصليّة، إلخ) التي تنبثق ردًّا على الأصوليّة الأوروبيّة المحور المهيمنة والتي تضعها الصحافة الغربيّة يوميًّا على الصفحات الأولى للصحف والمجلّات ما هي إلّا أشكالٌ تابعةٌ للأصوليّة الأوروبيّة المركز، وهي تُعيد إنتاج تراتبيات الأصوليّة الثنائيّة الماهويّة العنصريّة الأوروبيّة المركز وتحافظ عليها[1].

النتيجة السياسيّة لهذا النقاش المعرفيّ هي أنّ العنصريّة المعرفيّة تشكّل القاعدة الأساسيّة للنقاشات المعاصرة عن الإسلام السياسيّ وعن الديموقراطيّة، وما يسمّى (الحرب على الإرهاب). تنتهي العنصريّة المعرفيّة الغربيّة إلى الحطّ من قدر نظريّات المعرفة والكونيّات غير الغربيّة، وإلى تمييزها لنظريّة المعرفة الغربيّة كشكل المعرفة المتفوّق، والمصدر الوحيد لتعريف حقوق الإنسان والديموقراطيّة والمواطنة، إلخ... وإلى تجريد الآخر غير الغربيّ من الأهليّة وعدّه غير قادرٍ على إنتاج الديموقراطيّة، أو العدل أو حقوق الإنسان، أو المعرفة العلميّة إلخ... بناءً على الفكرة الأساسيّة أنّ المنطق والفلسفة يقبعان في الغرب، والتفكير غير المنطقيّ يقبع في البقيّة.

رُهاب الإسلام المعرفي في علوم الاجتماع

إنّ العنصريّة المعرفيّة المتجلّية في رُهاب الإسلام هي منطقٌ أساسيٌّ بنيويٌّ للعالم الحداثيّ الاستعماريّ وللأشكال المشروعة لإنتاج العلم. يُناقش الإنسانيّون والباحثون الأوروبيّون منذ القرن السادس عشر أنّ المعرفة الإسلاميّة أحطّ قدرًا من الغرب. كان النقاش حول الموريسكيّين في

1. Grosfoguel2009.

إسبانيا القرن السادس عشر مليئًا بمفاهيم رُهاب الإسلام المعرفيّ[١]، فبعد طرد الموريسكيّين في أوائل القرن السابع عشر استمر الحطّ من قدر (الموريسك) ضمن خطاب رُهاب الإسلام المعرفيّ، وادّعى المفكّرون الأوروبيّون المؤثّرون في القرن التاسع عشر، ونذكر على سبيل المثال إرنست رِنان، "أنّ الإسلام لا يتوافق مع العلم والفلسفة»[٢].

كذلك الأمر في العلوم الاجتماعيّة حيث نجد مظاهر متشدّدةً بما يخصّ رُهاب الإسلام في أعمال النظريّات الاجتماعيّة التقليديّة الصادرة عن علم اجتماعٍ بطريركيٍّ أوروبيّ المركز، كما الحال لدى كارل ماركس أو ماكس فيبر، وهوما ينقله سوكيدي: الإسلام بحَسب فيبر هو القطب المعاكس للكالفينيّة، فلا وجودَ لحدّين للقدر الإلهيّ في الإسلام كما في الكالفينيّة، ولكن الإسلام بحسب ما يُشير إليه فيبر في الخُلق البروتستانتيّ[٣] يتضمّن الاعتقاد بالحتميّة المسبقة وليس بالقدر، فيما يتّصل بقدر المسلمين حول العالم وليس فيما يتّصل بقدر الآخرين[٤]. خطاب القدر الذي حافظ عليه الكالفينيّون ودفعهم للعمل الشاق كنوعٍ من الخدمة التعبّديّة (نداء باطنيّ أو مهمّة) غير مُثبتٍ بين المسلمين. يُجادل فيبر أنّ «الشيء الأكثر أهميّة وهو دليل المؤمن إلى القدر لم يؤدِّ أيّ دورٍ في الإسلام»[٥]، ومن دون مبدأ القدر لا يمكن للإسلام أنْ يوفّر للمؤمنين به رؤيةً إيجابيّةً تجاه العمل الدنيويّ، والنتيجة أنّ المسلمين محكومون بالإيمان بالجبر[٦].

يستخدم فيبر الإيمان بالقدر مفهومًا مفتاحيًّا لشرح عقلانيّة الخطاب وتدبير الحياة، ففي الكالفينيّة يمكن للإيمان بالقدر أنْ يُنتج صرامةً أخلاقيّة وتقيّدًا بحرفيّة الشريعة، وتدبير منطقي للعمل الدنيويّ، وهذا كلّه غير موجودٍ في الإسلام، فعقلانيّة الخطاب وتدبير الحياة شيءٌ غريبٌ عنه[٧] .بناءً على ذلك لم يؤدِّ إيمان المسلمين بالقدر إلى عقلنة مذهبهم وتدبير حياتهم، جاعلاً المسلمين جبريّين لا منطقيين. من منظور فيبر، انحرف الإسلام عن التدبير العقلاني للحياة، بدايةً

1. Preceval،19971992-.

2. Ernst 2003: 2021-.

3. Protestant Ethic, ch. 4, n.36

4. ibid, p.185.

5. ibid..

6. ibid, p.197.

7. ibid, p.199.

من خلال هيمنة معتقدات فئةٍ من رجال الدين، ولاحقًا من خلال عودة العناصر السحرية إلى الحقل الديني[1].

إذا تتبّعنا منطق فيبر إلى نتائجه النهائيّة أنّ المسلمين جبريّين لا منطقيّين، عندها لا يمكن لأيّ معرفةٍ أن تصدر عنهم. ما هي جغرافيا المعرفة السياسيّة المشمولة في عنصريّة فيبر المعرفيّة؟ جغرافيا المعرفة السياسيّة المشمولة هي رُهاب الإسلام بنظر المُستشرقين الألمان والفرنسيّين المعرفي للإسلام الذي يكرّره فيبر في حُكمه على الإسلام، فالتقليد المسيحي هو التقليد الوحيد الذي ينهض بالعقلانيّة الاقتصاديّة وبالرأسماليّة الغربيّة الحديثة. لا يمكن مقارنة الإسلام بتفوّق القيم الغربيّة؛ لأنّه يفتقد إلى الفردانيّة وعقلانيّة العلم، فالعلم العقلانيّ والتقانة العقلانيّة الناتجة عنه غير معروفَيْن لدى الحضارات الشرقيّة بحسب فيبر. هذه الأقوال إشكاليّةٌ؛ إذ بيّن باحثون ومنهم صليبا (Saliba ٢٠٠٧) وغراهام (Graham ٢٠٠٦) تأثير التطوّر العلميّ في العالم الإسلاميّ على الغرب وعلى العلوم العصريّة وعلى الفلسفة الحديثة، فالعقلانيّة كانت إحدى ركائز الحضارة الإسلاميّة، وعندما كانت أوروبا غارقةً في أساطير ظلاميّةٍ إقطاعيّةٍ خلال ما يُعرف بالعصور الوسطى، كانت مدرسة بغداد المركز العالميّ للإنتاج العلميّ والفكريّ وللإبداع. منظور فيبر والمُستشرقين المتأثّرين به إلى الإسلام يُعيد إنتاج رُهاب الإسلام المعرفيّ حيث يكون المسلمون غير قادرين على إنتاج العلم أو على حيازة العقلانيّة على الرغم من الأدلّة التاريخيّة الداحضة لذلك.

إشكاليّة رُهاب الإسلام المعرفيّ هي نفسها لدى ماركس وإنجلز، فعلى الرغم من مكوث الأوّل في الجزائر لشهرين سنة ١٨٨٢ للتعافي من مرضٍ ألمّ به، نجده لم يكتب أيّ شيءٍ عن الإسلام، وقد كان لماركس ـ بحسب ما ذكر بشكلٍ مكثّفٍ في كتاباته ـ رؤيةٌ استشراقيّةٌ تتّسم بعنصريّةٍ معرفيّةٍ تّجاه الشعوب غير الأوروبيّة عمومًا[2]، وعلاوةً على ذلك كتب إنجلز المُآزر له عن الشعوب الإسلاميّة معيدًا النمطيّة العنصريّة نفسها التي استعملها ماركس ضد الشعوب الشرقيّة، إذ نجده في استعراضه للاستعمار الفرنسيّ في الجزائر يذكر: «عمومًا كان احتجاز الزعيم العربيّ بحسب رأينا أمرًا ميمونًا جدًّا، فنضال البدو كان ميؤوسًا منه، وعلى الرغم من أنّه يُمكن انتقاد طريقة إدارة الجنود الباطشة للحرب، إلّا أنّ احتلال الجزائر يُشكّل حقيقةً مهمّةً وميمونةً بالنسبة إلى تطوّر الحضارة. لم تتصدّ الحكومة البريطانيّة لقرصنة الدول البربريّة ما دامت لم تتعرّض لسفنها، ولم

1. Sukidi 2006:200.

2. Moore1997.

يكن بالإمكان منع هذه القرصنة إلّا عبر احتلال إحدى هذه الدول، فاحتلال الجزائر أجبر بايات تونس وطرابلس وحتّى إمبراطور المغرب على سلوك طريق الحضارة. لقد تمّ إجبارهم على إيجاد فرص عملٍ لشعوبهم بعيدةٍ عن القرصنة... وإنْ كنّا نأسف على القضاء على حريّة بدو الصحراء لا يمكن أنْ ننسى أنّ البدو نفسهم كانوا قومًا من اللصوص، كانت وسائل تأمين معيشتهم تشتمل على غزوهم بعضهم بعضًا، أو غزوهم لقرى الحضر ناهبين كلّ ما يجدونه، ذابحين كلّ من يقاومهم، وبائعين كلّ من يبقى من السجناء عبيدًا. من البعيد تظهر كلّ أمم البرابرة الأحرار أنّها عزيزةٌ ونبيلةٌ ومجيدةٌ، ولكن بمجرّد الاقتراب منها نجدها تُشبه الدول الأكثر تحضّرًا منها، حيث إنّها محكومةٌ برغبة الربح، وتوظّف لأجل ذلك وسائل أكثر قسوةً وخشونةً. في الخلاصة لا يمكن إلّا أنْ نُفضّل البرجوازيّ الحداثيّ والحضارة والصناعة والنظام وبشكلٍ أقلّ التنوير النسبيّ المصاحب له على اللصّ الغازي الإقطاعيّ وحالة المجتمع البربريّة التي ينتمي إليها»[1].

خيار إنجلز واضحٌ: دعم التوسّع الاستعماريّ الجالب للحضارة الغربيّة، حتّى ولو كان بورجوازيًّا وبطّاشًا لأجل التغلّب على الحالة البربريّة، وبذلك يكون تفوّق الغرب على الباقين وبالتحديد على المسلمين واضحًا في هذا البيان، وهو ما نلمسه أيضًا في حديثه عن الهند حيث يُحاول إنجلز إظهار تزمّت المسلمين غير المنطقيّ في الاقتباس التالي: «حرب العصاة بدأت تأخذ الطابع الذي وسم حرب بدو الجزائر ضدّ الفرنسيّين، مع الفارق أنّ الهنود بعيدين عن التعصّب وأنّهم ليسوا أمّة من الخيّالة»[2].

إنْ كان بقي أدنى شكٍّ في وجهات نظر ماركس التي يتشاركها مع إنجلز عن دونيّة المسلمين والشعوب غير الأوروبيّة قياسًا بالغرب فالاقتباس التالي هو دليلٌ آخر: «السؤال: ليس إنْ كان من حقّ الإنجليزيّ احتلال الهند، ولكن إنْ كنّا نفضّل احتلال الترك أو الفرس أو الروس للهند على احتلالها من البريطانيّ. على إنجلترا إنجاز مهمّةٍ مزدوجةٍ في الهند: المهمّة الأولى تدميريّة والأخرى تجديديّة، إبادة المجتمع الآسيويّ القديم ووضع الأسس الماديّة للمجتمع الغربيّ في آسيا. العرب والترك والتتار والمغُول الذين اجتاحوا الهند تباعًا تهنّدوا بسرعة، والمحتلّون البرابرة تبعًا للقانون الأبديّ للتاريخ تُخضعهم حضارة رعاياهم المتفوّقة. البريطانيّون كانوا أوّل المحتلّين

1. Engels، French Rule in Algiers، The Northen Star، January 22,1848, in: MECW, Vol, pp.469472-; quoted in S. Avineri (1968), Karl Marx on Colonialism and Modernization (Doubleday: New York, p. 43).

2. Engels: New York Daily Tribune, July 21, 1858, MECW, Vol.15, p. 583.

المتفوّقين على الحضارة الهنديّة ومنيعين ضدّها تاليًا... اليوم ليس ببعيدٍ الذي سيتمّ فيه اختصار المسافة الزمنيّة بين إنجلترا والهند إلى ثمانية أيّام عبر استخدام مزيجٍ من السكك الحديديّة والسفن البخاريّة، ما سيؤدّي إلى انضمام هذا البلد الأسطوريّ إلى العالم الغربيّ...»[1].

لم يكن لدى ماركس الكثير من الأمل في الروح البروليتاريّة للجماهير المسلمة، وهو ما نلمسه في حديثه عن توسّع الإمبراطوريّة العثمانيّة إلى أقاليم شرق أوروبا: «تكمن القوّة الأساسيّة للكتل السكّانيّة التركيّة في أوروبا ـ إذا استثنينا الاحتياط الذي يمكن سحبه من آسيا بشكلٍ دائم – في غوغاء القسطنطينيّة [إسطنبول] وبضع مدنٍ كبيرة أخرى. على الرغم من أنّ هذه الغوغاء التي في جوهرها تُركيّة تؤمّن معيشتها بشكلٍ رئيسٍ عبر عملها لدى رأسماليّين مسيحيّين، إلّا أنّها تحافظ بغيرةٍ كبيرةٍ على التفوّق المتوهَّم وتتمتّع بحصانةٍ حقيقيّةٍ ضدّ التجاوزات التي يسمح بها الإسلام ولا تسمح بها المسيحيّة، ومن المعروف أنّه يجب كسب هذه الغوغاء في كلّ انقلابٍ مهمٍّ عبر الرشوة أو المديح، وهذه الغوغاء وحدها تُشكّل كتلةً سكّانيّةً تركيّةً مرصوصةً ومهيبةً في أوروبا إذا استثنينا بعض الأقاليم المُستعمَرة. عاجلاً أم آجلاً سيكون تحرير أحد أفضل أجزاء أوروبا من حكم هذه الغوغاء ضرورةً قصوى، وقد تظهر غوغاء روما الإمبرياليّة مقارنةً بها كمجموعة من الحكماء والأبطال»[2].

بالنسبة إلى ماركس وكذلك إلى فيبر الشعب المسلم من أصولٍ تركيّة هم غوغاء من جهلةٍ جعلوا غوغاء الإمبراطوريّة الرومانيّة يبدون حكماء مقارنةً بهم، وهو يدعو إلى نضالٍ تحريريٍّ ضدّ الغوغاء المسلمة. الحضارة الأوروبيّة بالنسبة إلى ماركس متفوّقة؛ ولذلك عليها تحضير المسلمين غير الأوروبيّين، وفي نظره التوسّع الاستعماريّ الغربيّ أفضل من ترك شعبٍ بربريٍّ منحطٍ في مرحلةٍ لازمنيّة دون المساس به.

لم يثق ماركس بالمسلمين وكان مقتنعًا بكراهيّة الإسلام للآخر، وكتب معتذرًا عن الاستعمار الأوروبي ما يلي: «لن يتجرّأ أحد على التعريف بنفسه في مجتمعٍ مسلمٍ من دون أخذه بعض الاحتياطات؛ لأنّ القرآن يُعامل كلّ الغرباء كأعداءٍ؛ ولذلك ابتكر التجّار الأوروبيّون الأوائل الذين

1. Marx, «The Future Results of the British Rule in India» written on July 22، 1853, in Marx and Engels On Colonialism, page 81- 83…

2. Turkey, New York Daily Tribune, April 7, 1853, written by Engels at Marx's Request, quoted in S.Avineri (1968), Karl Marx on Colonialism and Modernization (Doubledy: New York, p.54).

تجرّؤوا على التجارة مع مثل هذا الشعب معاهدةً استثنائيّةً لحماية أنفسهم امتيازاتٍ في أصلها خاصّة لكنّ نطاقها توسّع لاحقًا ليشمل كلّ أمّتهم، وهذا هو أصل الامتيازات الأجنبيّة»[١].

ذكر ماركس مكرِّرًا المنظور الاستشراقيّ العنصريّ النمطيّ السائد في زمنه: «القرآن والتشريع الإسلاميّ الصادر عنه يختزلان جغرافيا الشعوب المتعدّدة وإثنوغرافيتها إلى أُمّتين عبر تمييزٍ بسيطٍ عمليٍّ؛ أمّة الإيمان وأمّة الكفر، والكافر حربي أي العدو. الدين الإسلامي يُحرّم أمّة الكفر مؤسّسًا لحالةٍ من العداء الدائم بين المسلمين والكفّار»[٢].

كانت هذه الرؤية المبسّطة الماهيويّة الإختزاليّة للإسلام من منظور يهوديّ، مسيحيّ المركز، ومن منظورٍ غربيّ المحور جزءًا من عنصريّة المُستشرقين المعرفيّة وأبويّتهم المتعالية تجاه الفكر الإسلاميّ، وماركس لم يكن استثناءً؛ إذ إنّه كان يعتقد أنّ العلمنة ضروريّةٌ لإتاحة الفرصة للثورة في أراضي المسلمين، وذكر: « أنّ إبطال خضوعهم للقرآن عبر تحريرٍ مدنيٍّ يُلغي في الوقت نفسه خضوعهم لرجال الدين، ويُفضي إلى ثورةٍ في علاقاتهم الاجتماعيّة والسياسيّة والدينيّة... يستوجب استبدال القرآن بقانونٍ مدنيٍّ تغريب بنية المجتمع البيزنطيّ بشكلٍ كاملٍ»[٣].

منظور ماركس العلمانيّ يتبنّى إستراتيجيّةً استعماريّةً نمطيّةً روّجت لها الإمبراطوريّات الغربيّة لتدمير أنماط تفكير الرعايا المُستعمَرين، وطرق حياتهم لمنع أيّ شكلٍ من أشكال المقاومة. يُسقط ماركس جدليًّا أنّ المسلمين خاضعون لحُكم الدين كُوزْمُولُوجيَا المنظور العلمانيّ الغربيّ المركز ومسيحيّه على الإسلام، والإسلام لا يرى نفسه دينًا بالمعنى الغربيّ المسيحيّ الذي يضعه في حيزٍ منفصلٍ عن السياسة والاقتصاد إلخ... الإسلام أكثر شبهًا بكُوزْمُولُوجيَا تتّبع مفهوم التوحيد، ويُمثّل مذهبًا وحدويًّا ولديه نظرةٌ شُموليّةٌ إلى العالم، وهذا ما طمسته الرؤية الديكارتيّة الحديثة/ الاستعماريّة الأوروبيّة المركز في الغرب، وحاولت عبر توسّعها الاستعماريّ طمسه في بقيّة العالم كذلك. كان تطبيق التنصير الاستعماري في بداية العصر الحديث الاستعماريّ، والعلمنة في القرن الثامن عشر بعد التوسّع الاستعماريّ اللاحق جزءًا من الحرب على المعرفة، والحرب على الدين، أي اجتثاث الروحانيّة، وسُبل المعرفة غير الغربيّة، وهو ما طبّقه الاستعمار الغربيّ الاستعماريّ خلال

1. The Outbreak of the Crimean War – Moslems، Christians, and Jews in the Ottoman Empire, "New York Daily Tribune, April 15, 1854, quoted in S. Avineri (1968), Karl Marx on Colonialism and Moderization (Doubleday: New York, p. 146.

2. ibid, p.144.

3. ibid, p.146.

توسّعه، فالحرب على المعرفة، والحرب على الدين مكّنا الاستعمار من عقول الرعايا المُستعمَرين وأجسادهم.

إنْ كانت الحجّة المخفِّفة لماركس وفيبر أنّهما منظّران تقليديّان للعلوم الاجتماعيّة، فإنّ العلوم الاجتماعيّة الغربيّة مطّلعةٌ على التحيّز المعرفيّ الأوروبيّ المركز القائم على رُهاب الإسلام. يستوجب التخلّص من الطابع الاستعماري لعلوم الاجتماع الغربيّة الكثير من العمليّاتِ المهمّة التي لا يتسنّى لنا شرحها بالتفصيل في هذا المقال، ولكنّ إحدى هذه العمليّات هي توسعة نطاق النظريّة الاجتماعيّة لتدمج إسهامات منظّري علم الاجتماع غير الغربيّين وغير الاستعماريّين كمكوّنٍ رئيسٍ فيها، ونذكر منهم بوفنتورا دي سوسا سانتوس، وسلمان سيّد، وعلي شريعتي، وأنيبال كويجانو، وسيلفيا ريفِرا كوسيكانكوي، ودو بويز، وسيلفيا ويِنْتر، وغيرهم من منظّري علم الاجتماع الذين يفكّرون من الجانب الآخر [الأدنى] للحداثة. إنّ دمج هؤلاء المُفكّرين ليس مسألةً تعدّديّةً ثقافيّةً فحسب، ولكنّه ضروريٌّ لتأسيس علم اجتماعٍ غير استعماري أكثر دقّةً وتخصّصيّةً (عكس كلّيانيّة). الدكتور علي شريعتي تحديدًا هو عالم اجتماعٍ إسلاميّ أنتج نقدًا مهمًّا لمنظّري علم الاجتماع الغربيّين من أمثال ماركس.

ولكنّ هل هناك علم اجتماعٍ أوحد، وتاليًا لا وجود لعلوم اجتماعٍ متنوّعة؟ ما نعرّفه اليوم أنّه علم اجتماعٍ هو علمٌ محلّيٌّ (تقليد التفكير الذكوريّ الأوروبيّ) يحدّد للبقيّة ماهيّة علم الاجتماع وما هي المعرفة الكلّيانيّة الصحيحة. يستوجب التخلّص من الطابع الاستعماري لعلوم الاجتماع المحلّيّة المُغرّبة الانتقال إلى حوارٍ أفقيٍّ بينيٍّ المعرفة بين علماء اجتماعٍ ينتمون إلى تقاليد تفكيرٍ معرفيّةٍ مختلفة، وذلك للتأسيس لعلوم اجتماعٍ غير استعماريّةٍ جديدةٍ ضمن صيغةٍ تعدّديّةٍ بدل الصيغة الكلّيانيّة الحاليّة، وهذه مهمّةٌ صعبة ولا يُمكننا الخوض في تفاصيل ما تستوجبه في هذا المقال. إنّ الانتقال من الكلّيانيّة إلى التعدّديّة في علوم الاجتماع ضروريٌّ للانتقال من الأنموذج الذي يحدّد فيه شخصٌ واحدٌ التعريفات للآخرين إلى أنموذجٍ جديدٍ يكون إنتاج المبادئ والمعرفة فيه نتيجةً لحوارٍ أفقيٍّ عموميٍّ بينيٍّ معرفيٍّ، وهذا ليس نداءً للنسبويّة ولكن للنظر إلى الكلّيانيّة على أنّها تعدّديّة، أي إنّها نتيجةٌ للتفاعل البينيّ المعرفيّ ضمن صيغةٍ أُفقيّةٍ عوضًا عن تفاعل علوم الاجتماع الشموليّة الحاليّة الإمبرياليّة الاستعماريّة مع بقيّة العالم لها، وليس نتيجة.

النقاشات الراهنة حول رُهاب الإسلام

تكمن أهمّية النقاش عن رُهاب الإسلام المعرفيّ في أنّ هذا الرُهاب بيّنٌ في النقاشات المعاصرة

وفي السياسة العامّة، ويتجلّى حاضرًا في النقاشات حول حقوق الإنسان والديموقراطيّة العنصريّة المعرفيّة والأصوليّة الأوروبيّة المركز المصاحبة لها في النظريّة الاجتماعيّة. تُعدّ نظريّات المعرفة غير الغربيّة التي تحدّد حقوق الإنسان وكرامته بمفرداتٍ مختلفة عن الغرب أدنى من التعريفات الغربيّة المهيمنة، ويتمّ بذلك إقصاؤها عن الخطاب العالميّ حول هذه المسائل.

إذا كان المفكّرون الغربيون ونظرية الاجتماع التقليدية يضعون الفلسفة والفكر الإسلامي في مرتبةٍ أدنى من نظيريهما الغربيين، فإنّ النتيجة المنطقيّة لذلك هي نفي قدرة هذا الفكر على الإسهام في قضايا الديمقراطيّة وحقوق الإنسان. ويترتب على هذا الإقصاء المعرفي ليس استبعاد الفكر الإسلامي من الحوار العالمي فحسب، بل تبرير قمعه وتحييده. المنظور الغربيّ المحور المُضمر هو أنّه بإمكان المسلمين أنْ يكونوا طرفًا في هذا الحوار شريطة أنْ يكفّوا عن التفكير بوصفهم مسلمين، ويتبنّوا التعريف الليبراليّ المهيمن الأوروبيّ للديموقراطيّة وحقوق الإنسان، ويكون أيّ مسلمٍ يحاول التفكير في هذه المسائل منطلقًا من التقليد الإسلامي على الفور أصوليًّا وموضع شبهةٍ. الإسلام وديموقراطيّة الإسلام وحقوق الإنسان تعدّها البديهيّة الأوروبيّة المهيمنة تناقضًا لفظيًّا.

إنّ الأساس الجوهري لما يُروَّج له من عدم توافق بين الإسلام والديمقراطية هو التحقير المعرفي الممنهج للرؤى الإسلاميّة. ففي السياق الراهن، يواصل عددٌ من المختصّين الغربيّين العنصريّين في الحقول المعرفيّة، التحدّث عن الإسلام من موقع الهيمنة، رغم افتقارهم إلى أدنى إلمامٍ جادٍّ بالتقليد الإسلامي ومناهجه الفكرية.. الصور النمطيّة والأكاذيب التي تتكرّر باستمرار في الصحافة والمجلّات الغربيّة تنتهي بتصديقها كما في نظريّة غوبِل النازيّة عن البروبغندا، وهذا ما ذكره إدوارد سعيد منذ مدّةٍ ليست ببعيدة:

«هناك جماعةٌ من الخبراء المختصّين بالعالم الإسلاميّ الذين اكتسبوا شهرةً عبر استدعائهم للحديث بشكلٍ أبويٍّ عن أفكارٍ نمطيّةٍ في البرامج الإخباريّة أو الحواريّة. كما يبدو أنّه هناك إعادة إحياءٍ غريب لأفكار المُستشرقين المُعتمدة حول المسلمين التي تمّ تكذيبها سابقًا، وهي عمومًا أفكارٌ شعبويّةٌ صادرةٌ عن غير البيض، وتُحقّق حُضورًا لافتًا في زمنٍ لم يعد تشويه الثقافات الأخرى العنصريّ الدينيّ يتمتّع بأيّ حصانةٍ. التعميمات الكيديّة عن الإسلام غدت آخر شكلٍ من أشكال استصغار الثقافات الأخرى المقبولة في الغرب. ما يُقال عن العقل المسلم أو الشخصيّة المسلمة أو الدين الإسلاميّ أو الحضارة الإسلاميّة عامّةً لم يعد ممكنًا قوله في النقاش العامّ عن الأفارقة أو

اليهود أو الآسيويّين أو المشرقيّين الآخرين... احتجاجي... أنّ معظم هذا التعميم غير مقبولٍ وغير مسؤولٍ إلى أقصى الدرجات، ولا يُمكن استخدامه في النقاش حول أيّ مجموعةٍ دينيّةٍ أو ثقافيّةٍ أو سكّانيّةٍ أخرى في العالم. ما نتوقّعه من أيّ دراسةٍ جديّةٍ للمجتمعات الغربيّة تشتمل على نظريّاتٍ معقّدةٍ وتحليلٍ شديدِ التنوّع للنُظم الاجتماعيّة، وللتاريخ، وللتنظيمات الحضاريّة، وللغات التحقيق المتمرّسة، يجب أنْ نتوقّعه أيضًا لدى دراسة المجتمعات الإسلاميّة في الغرب والنقاش حولها»[١].

تدوير هذه الصور النمطيّة يُسهم في تصوير المسلمين أنّهم أدنى عرقيًّا، وأنّهم مخلوقاتٌ عنيفةٌ؛ وبذلك يسهل ربطهم بالإرهاب، وإظهارهم بشكل الإرهابيّ.

١. Said ١٩٩٨: xi-xvi.

المراجع

1.Ernst، Carl W. Following Mohammad: Rethinking Islam in the Contemporary World. (The University of North Carolina Press، Chapel Hill y Londres).2003.

2.Graham، Mark. How Islam Created the Modern World (Amana Publications: Beltsville، Maryland). (2006).

3.Grosfoguel، Ramon. Colonial Subjects. (California University Press: Berkeley). (2003)

4.Grosfoguel، Ramon. "Para descolonizar os estudos de economia política e os estudos pós-coloniais: Transmodernidade، pensamento de fronteira e colonialidade global" Revista Crítica de Ciências Sociais، numero 80 (março): 115-147. (2008a). English version: http://www.eurozine.com/pdf/2008-07-04-grosfoguel-en.pdf

5.Grosfoguel، Ramon. "La longue intrication entre islamophobie et racisme dans le system mondial moderne/colonial/ patriarcal" in Mohamed Mestiri، Ramon Grosfoguel and El Yamine Soum (eds) Islamophobie dans le Monde Moderne (Paris: IIIT France and UC-Berkeley). (2008b).

6.Grosfoguel، Ramon. "Human Rights and Anti-Semitism After Gaza،" Human Architecture: Journal of the Sociology of Self- Knowledge، Vol. VII، issue No. 2 (Spring): (2009). 89-101.

7.Hills Collins، Patricia. Black Feminist Thought: Knowledge، Consciousness and the Politics of Empire (Routledge: London). (1991).

8.Maldonado-Torres، Nelson. Against War. (Duke University Press، Durham). (2008a).

9.Maldonado-Torres، Nelson. "Religion، Conquête et Race dans la Fondation du monde Moderne/Colonial" in Islamophobie dans le Monde Moderne، Edited by Mohamed Mestiri، Ramon Grosfoguel y El Yamine Soum. IIIT، París; (2008b). 205-238.

10. Moore، Carlos , 2nd edition. Where Marx and Engels White Racists?: The Proletaryan Outlook of Marx and Engels (Institute of Positive Education: Chicago، Illinois)(1977) http://pdfserve.informaworld.com/411649_915549761_745946075.pdf

11. Perceval، Jose María. "Animalitos del señor: Aproximación a una teoría de las animalizaciones propias y del otro، sea enemigo o siervo، en la España imperial (1550-1650)" in Areas: Revista de Ciencias Sociales (Universidad de Murcia)، No. 14: (1992). 173-184.

12. PERCEVAL، José María. Todos son uno. Arquetipos، xenofobia y racismo. La imagen del morisco en la monarquía española durante los siglos XVI y XVII. Almería: Instituto de Estudios Almerienses.(1997).

13. Said، Edward. Covering Islam: How the Meida and the Experts Determine How We See the Rest of the World (Vintage Books: New York). (1998).

14. Sukidi "Max Weber's remarks on Islam: The Protestant Ethic among Muslim puritans،" Islam and Christian-Muslim Relations، 17: 2, (2006). 195–205.

15. Saliba, George. Islamic Science and the Making of the European Renaissance (MIT Press: Boston (MIT Press: Boston). (1997).